

# فاتحة

## بِسْمِ اللَّهِ وَبِهِ الثِّقَةُ

دعوت منذ بدأت بالاشتغال في الصحافة العربية سنة ١٣١٥ هـ إلى نبت دفائن المدنية العربية ، وبث خزائن الحضارة الغربية ، وأبرزت هذه الدعوة فيما نشرته في جميع الصحف والمجلات التي أنشأتها وآزرتها في مصر والشام من موضوعات في العلم والاجتماع ، والتاريخ والأدب ، والنقد والتربية . وهأنذا أهدى لقراء العربية نموذجات مما كتبت عسى أن يكون منها لهم في عصر القوميات عبرة وذكرى ، ولبنينهم وبناتهم في تأليف وحدثنا الاجتماعية درس وسلوى . فمفاتيح كنوز الأجداد التي انتقلت إلى النشء بالارت الصحيح لا غنية لهم عن معالجتها بالفتح لاستمالة مافيا والاستظهار بمعنوياتها ثم بمادياتها لأن هذا الحاضر الذي يحاول بعضهم ، الاقتصار عليه هو ريب ذاك الغابر ووليدته ، بل سليله وحفيده وطريده ، والجود على القديم هو العقم بعينه ، وقطع الصلة على مع المدنية الحديثة ، مضرة ومعرفة . ولا خير فيمن جهلت أصوله . ولم يتخلق بأخلاق جيله وقبيله والله الموفق سبحانه

محمد كرد علي

٦ / جمادى الأولى ١٣٤٣  
٢ / كانون الأول ١٩٢٤

دمشق

## القديم والحديث (١)

لم يأت على هذه الأمة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، وانهمز القديم بضعف القائلين به وقوة انصار الحديث . عنينا بذلك أرباب التقليد ممن يرون السعادة في الاكتفاء بما تعلموه من آباءهم ، وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ، ويمدون ما عداها ضرراً يجب البعد عنه ومحاربتة بكل وسيلة ، كما عنينا أرباب التجديد الذين يزعمون أن الاكتفاء بما لوم أهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شأننا .

نشأت للأمة ناشئة بعد أن كثرت احتكاكنا بأوروبا في أواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور العقل ، وذلك فكافة بما رأته من دعاة ذلك القديم ، وأكثرتهم مثال الجلود والبلاهة ، ونموذج الفساد وسوء التربية ، فقامت تزهد فيهم وفيما يدعون اليه ، تحمل عليهم حملاتها ، وتتعامل عليهم بتمحلاتها ، وكذلك كان شأن انصار القديم مع دعاة الحديث ، يرمونهم بكل كبيرة ، ويسلبونهم كل فضيلة ، ويطعنون بعلمهم إلا قليلاً ، ويمدون النافع منها مما لا يضر ولا ينفع

لا خلاف في أن ملكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الاسلامية لضعف حكوماتها ، والعامل الرئيسي في كل البلاد هو السياسة ، اذا ضعفت يتبعها كل شئ ، فجهل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو الذي رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين ، فصار العلم الديني يتعاه المرء لا لينال السعادتين ، ويكون عضواً مهما في جسم المدينة الفاضلة ، بل ليخدم به اغراض أمراء السوء ، ويستولي على عقول العامة ، وتقبل يده ويكرم بالباطل ، وهذا ما حدا بحجة الاسلام الغزالي واضرا به في عصره وبعده أن يندحوا على فقهاء السوء أنحاءهم على امراء السوء لأنهم يتعاملون علوم الفقه والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ، ويجعلوا من الدين سلاحاً يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم وأهوائهم . ولقد فضل الغزالي

في الاحياء وتهافت الفلاسفة من يتعمدون النلب على الفقهاء وقال : ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافى الدين يجنى على الدين .

شفلت الأمة زمناً بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التتار من العوامل المنهكة لقواها ، ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه ، الى أن جاءت الدولة العثمانية وهي تاتارية لا تقيم للمدنية وزناً ، ولا تعرف لعلوم العمران لفظاً ولا معنى ، قوتها بجندها ، وعلمها في إرهاب حدها ، وعظمتها ببطشها ، ومجدها باكتساح البلاد ، واخضاع النفوس لسلطوتها ، فحاول محمد الفاتح أحد ملوكها أن يجمل من القسطنطينية دار علم ، كما هي دار ملك ، بحجارة لدولة الجراكسة في مصر والشام ، وأعظم لذلك الأقطاب والهبات ، وانشأ المدارس وحبس الأوقاف ، ولكن ذلك لم يدم إلا بدوامه ، حتى اذا مضى لسبيله عادت الحكومة الى زهدها في العلوم ، وقد صارت رسمية على عهد المفتي أبي السعود الذي سعى لجعل العلم وراثياً ، وصار ابن العالم يرث أباه ووظائفه ورواتبه ، وان كان أجهل من قاضي جبل . وعالم هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا ، والبلاء العمم على البلاد .

ومع أن الفرس والترك سواء في العجمة ، فالفرس أقدر من الترك على تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ، ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم ببيانها . وما تراه من حال علماء فارس اليوم واتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية ، وانحطاط العربية في بلاد الترك وضمف ملكة العلوم الدينية فيها ، لا يرجع إلا الى أن ميل أبناء فارس الى إحكام العربية قديم فيهم ، وان الترك بأمرائهم المتبررين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جنابة كبرى

ولما أرادت الدولة أن تنهض وتنشبه بأوروبا وأخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغى لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع أخذت روح التفلسف تسرى الى الاستانة ومنها سرت الى الولايات ومصر ، فلم يعبأ انصار القديم بما رأوه أولاً ، واحتقروا ذلك السيل الجارف الآتى عليهم من أوروبا ، وارثاى بعضهم ان خير ما يقابل به المتزندقون ان يكفروا أو يجرموا

أو يضربوا ، أو يجسوا أو يهددوا بالقتل أو يقتلوا ، ولم يعدوا لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم ، وحفظ ملكة الدين في القلوب ، لتسير مع علوم الدنيا كتنقأ الى كنف ، وجاءت أدوار أصبح الوزراء وولاة الأمر إلا قليلا من الطائفة التي نزع ربة القديم ، فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين في انحلالهم يدمون سرا وجهراً الى عدم التأدب بأداب الدين ، محتجين بما هو مائل للعيان من فساد القائم عليه ، وانحطاط المنتسبين اليه

وها قد اصبحنا بمد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والأمة شطرين شطر هو الى البلاهة والغباوة ، وشطر الى الحمق والغفلة ، وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب أن معظم المستنيرين بقبس العلوم الأوربية منا لا يرجعون الى آداب دينهم ، ويميلون في الظاهر والباطن الى أن يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسة والجنسية ، واذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الأديان صغروا اليك خذوهم وقالوا لك إن الأمة تعيش بحديثها دون قديمها ، وان ذلك القديم ان لم يضرنا الا أخذ به فهو لا ينفعنا ، والمائل لا يقبل الا على ما ينفعه ويعلى قدره

تلك هي شنشنة أنصار الحديث أو الملاحدة والزنادقة الطبيعيين كما يطلق عليهم المتدينون ، وهذه حالة هؤلاء مع أولئك ، وستكون الغلبة لأنصار الحديث اذا لم يتم خصومهم بلم شعهم على صورة معقولة مقبولة ، وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط بينهما فلم ي طرح القديم كله ، ولا الأخذ بالحديث بجملته ، بل آثر أن يأخذ النافع من كل شيء ويضم شتاته ، وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخريين مقاومة فعلية ، وعامتهما غير راضين عنهم بالطبع ، لأن أكثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب الينا أحد علماء المشرقيات في برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمناً ، وانقطعوا لدرس أحواله الاجتماعية وعلومه الأثرية ، كتاباً بالعربية يصف فيه المقتبس وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذلك السبات الطويل قال فيه : —

أما الرسائل التي هي لها (المجلة) فرأيتها تدور أبداً على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الأفرنجية الحديثة فيها واحياء الآداب العربية ، وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم ، إذ لا فائدة من تقليد الأجنبي وحده ، ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده ، بل الخير كل الخير في الأخذ من هنا وهناك ، وتعميم الدرس والبحث مع اضرام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور ، وذات حرارة ، وذات إنبات ، واعنى بها المبدأ الشعبي ، ولنا أن نسميه الشعوبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة

اجتهاد الاسلام والنصرانية أن ينشأ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله الا أنها فشلا . ولقد تنبأ بعض المسلمين بأن الجامعة الاسلامية التي ستكون في أواخر هذه السنة لن تأتي بما يرجوه أكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستقوى الاحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني . أما أنا فقول إن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المبنية على وحدة التربية والاخلاق والمعادن وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه ، لأن هذا الاجتماع من شأنه أن يدعو الي نمو عامة التقوى فيزيد من له ميل الى الحياة الدينية اعتقاداً وعملاً ، كما يزيد من له ميل الى غير الدين قوة فيما اختاره وعلى هذا فن مصلحة كل دين أن يكون نصف منتعليه مجتهدين مخلصين ، أكثر من أن يكون الجميع فاترين غير مكثرين بشيء اه

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ أشهر نشرناه ليطلع عليه أنصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القديم أن لقيام لأمرنا بغير الاخذ من مدنية أوروبا ، ويدرك أنصار الحديث بأن هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم وتنفع بني قومهم الا اذا رافقها ما يجمعها من علوم الأسلاف وآدابهم ، والامة التي تنزع ربة قديمها جملة واحدة وتنتقل الى طور آخر دفعة ، قد ينمكس عليها الامر ويلتوى عليها القصد ، ولم تنجح اليابان الا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها باجزاء مدينتها وهذا سر قول العالم

المشار إليه « لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ولا فائدة من التناغم فقط بالأثار الشعبية » أي ماورثناه عن أجدادنا من التشبث باهداب الوطنية ، وذكر القديم والحرص عليه

ولنا في الغرب دولتان كبيرتان هما مثال في اقتباس الجديد والحرص على القديم . فقد شهدنا ألمانيا الى اليوم تجرى في مدارسها وكلياتها على آداب النصرانية المنقحة فلا تسند التدريس فيها الا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة أن يفسد عليها تربية أبنائها فتكون مدنية دينية أما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له في السنين الاخيرة حتى نزلت لفظ الجلالة من المعاهد العامة وأخذت تضيق الخناق على أهل التدين من حملة العلم والاقلام حتى صار المتدين سرّاً يتجاهر بالانحلال جهراً ليأمن على ماله ورزقه وسموا هذا حرية ولكن الله يحصى على الأمم ذنوبها كما لا يغفل عن الافراد ، وها قد أخذت المدنية الفرنسية التي بهرت العيون في الزمن الماضي ترجع القهقري وعلماء الاخلاق فيها ليكون دماً على انبتات شملهم وتراجع عمرانهم ، حتى روى بعض الاحصائيين ان عدد الفرنسيين سينزل في أواخر القرن العشرين الى ثلاثة ملايين لأن المواليد أخذت تنقص عن الوفيات . أما في ألمانيا فبفضل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تزايدت سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خاق الالماني أن يترك من القديم كل ما لا ينفع منه أما الفرنسي فيجرف منه النافع مع الضار ، وشتان بين الخلقين والمدينتين وهما هي النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الأمة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بقديها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد على أن تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بما من من طعن الطاعنين بها كما تجرى المدنية على الشوط الذي يراه واذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو رأى كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا

بالتسليم ، ويتركوا العالم حراً يسير وحده دون أن يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل  
الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله أعلم

## الشمعوية بيتة<sup>(١)</sup>

يقوى تفاخر كل عنصر بعنصرهم ، وأهل كل جنس بجنسهم كلما كانوا أقرب  
الى اللهجية والمصبية الجاهلية . جاء الاسلام فسكان من أعظم اصلاحه اسقاط  
دعوى الجنسيات أو القضاء على التفاخر بالأباء والاجداد فساوى بين العربي  
والفارسي والاهر والاصفر والابيض والاسود وكانت قاعدته العامة أن لا فضل  
لعربي على عجمي الا بالتقوى

والظاهر أن دعوى الشمعوية أى عدم الاستعداد بالعرب وتمثيل المعجم  
عليهم دخلت بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترک والنبط فى خدمة الدولة  
الاسلامية فلنشأت منها المداوات بين العرب أهل الدولة وبين المعجم كما كانت تنشأ  
فى هذه البلاد بين تركي وعربي كلما اشتد الاول فى ارهاق الثانى

سألنا استاذنا الشيخ طاهر الجزائري عن الشمعوية فكتب الينا ما يأتى « اما  
الزمن الذى ظهرت فيه الشمعوية فلا يحضرنى فيه شىء . والوقوف على أوائل  
الاشياء من أصعب المسائل وأدقها . الا ان الذى ظهر لى أن ذلك حدث بعيد عصر  
الخطاء الراشدين لوجود الداعى الى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذى هو من عادات  
الجاهلية التى آتى الدين بإبطالها . ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومى  
وبلال الحبشى فى أوائل الأمة زال عنه الشك فى هذه المسألة ، ولا يدخل فى هذا  
الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق ؛  
فان هذا نوع آخر الا أن من بحث عن أحوال الامم ووفى النظر حقه تبين له أن  
العرب فى الجملة لا تسامهم أمة البتة

« وأظن أن لا بد ان تؤلف بعد حين كتب فى خصائص الأمم وكتب فى  
خصائص البلاد ، كما ألفت كتب فى خصائص اللغات ، وتجعل من الفنون التى يبنى